أثر الإيمان باليوم الآخر على السلوك الاقتصادي للمسلم

د/ محمد حمدي
كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة باتنــة 1

ملخص:

تناول الباحث أثر الإيمان باليوم الآخر على السلوك الاقتصادي للمسلم الذي ينبع من عقيدة راسخة في القلب أولا، وبالوعي التام بحقيقة الحياة الدنيا، لكونها مجالا للتسابق نحو الفوز الحقيقي في الدار الآخرة. يُستهل البحث ببيان مفهوم الإيمان باليوم الآخر كمقوم أساس من مقومات الإيمان، فإذا تمكنت النظرة الشاملة في العلاقة بين الحياة الدنيا والآخرة من نفس المؤمن أثمرت سلوكا متميزا في ربط العقيدة بالاقتصاد في الإنتاج والإنفاق والاستهلاك وسائر الظواهر الاقتصادية، مدعما بيان هذا الأثر من سلوك الصحابة رضوان الله عليهم، كنموذج للحياة الإنسانية الواعية لهدفها في الحياة. ويخلص الباحث إلى أن هذا الإيمان يحرر المسلم من أسر المادة وحب الدنيا ويحولها إلى وسيلة عمل وسعي جاد ومسؤولية نحو تحقيق الهدف الأكبر للإنسان والسعي نحو ابتغاء مرضاة الله.

الكلمات المفتاحية: العقيدة، الرسالة الاستخلافية، اليوم الآخر،الإنفاق في سبيل الله، النظرة الكونية الشاملة، العلاقة بين العقيدة والاقتصاد، نماذج السلوك الاقتصادي، العلاقة بين الدنيا والآخرة.

Abstract

Researcher showed the impact of faith of the last day on the economic behavior of the Muslim which stems from a well-established doctrine in the heart firstly, and the full consciousness in the fact of this life , because it is the area of the real race to win in the hereafter, the Study begins with the statement of the general doctrine concept and the faith in the last day as a fundamental element of doctrine, in particular, so if this overview was generalized in the relationship between this life and the last day resulted a distinct behavior in connecting doctrine to the economy in production, consumption, spending and other economic phenomena, This effect is supported by a statement of the behavior of the caliphs, God bless them, as a model

for the conscious human life to its aim in life, the researcher concluded that this faith frees the Muslim of constraints of material life.

مقدمة:

خلق الله الإنسان على هذه الأرض وسخر له ما في الكون لرسالة واضحة وغاية محددة، هو أن يعبد الله بحريته وإرادته، بينما تخضع بقية المخلوقات من حيوان ونبات وجماد لبارئها وخالقها بفطرتها التي ألهمها الله إياها، ونظرا لطبيعة عبودية الإنسان الاختيارية: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ (البلد:10) فهو يعيش حياتين، حياة الاختبار والعمل وحياة الجزاء بلا عمل، فالدنيا والآخرة، تتفقان في الخط والهدف، فالأولى مقدمة ومزرعة للأخرى، وتختلفان في طبيعة كل منهما، أولاهما فانية منتهية والثانية خالدة مستمرة أبدية.

إن من ركائز التوحيد الأساسية- بعد الإيمان بوحدانية الله تعالى وإخلاص العبادة له وبالرسل المرسلة والكتب المنزلة- الإيمان باليوم الآخر كمحطة نهائية تنتهي إليها الحياة الإنسانية وأنها غاية كل إنسان يسعى للوقاية من جحيمها والفوز بنعيمها، معتبرة من جانب آخر أن الدنيا هي المعبر الوحيد والقنطرة الأساسية التي يعبر منها الإنسان إلى الآخرة، وأن مصيره ما هو إلا نتيجة لكسبه وعمله في الدنيا، فإذا استقرت هذه العقيدة في قلب الإنسان وتمكنت هذه العلاقة بين الدارين في تصوراته الفكرية امتدت لتشمل الحياتين معا واتسعت آفاقه إلى الحياة الأبدية ولا يسجن فكره في إطار التخطيط والعمل لهذه الحياة الضيقة الفانية، تنطلق كل تصرفاته السلوكية والعملية من دائرة هذه الرؤية الواسعة الآفاق، مدركا تمام الإدراك دوره في الحياة ضمن رسالة الاستخلاف التي أناط بها الله تعالى الإنسانية لما خاطب ملائكته بقوله: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ [البقرة:20] وأنها هي الفرصة الوحيدة للعمل الصالح من أجل الفوز بالسعادة الأبدية.

وفي هذا البحث يحاول الباحث أن يسلط الضوء على أهمية الإيمان باليوم الآخر ضمن مقومات التوحيد، وعلى أثره في سلوك المسلم وهو يمارس الرسالة الاستخلافية في الأرض.

أولا: الإيمان باليوم الآخر حقيقته وأهميته:

1- أركان الإيمان في الإسلام:

تتحدد مقومات الإيمان كما تعرضها نصوص الكتاب في خمس: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[1]، وتضيف نصوص الحديث مقوما سادسا وهو الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، من حديث جبريل عليه السلام[2] .وقد صنفها بعض دارسي علم العقيدة إلى أربعة أقسام[3]:

القسم الأول الإلهيات: الإيمان بوجود الله عز وجلّ، أساس مسائل العقيدة كلها، ومنه تتفرع بقية الأمور الاعتقادية، وهي إثبات الوحدة لله تعالى في الذات والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد[4].

القسم الثاني النبوات: النبوءة مأخوذة من النبأ بمعنى الخبر، ومعناها وصول خبر من الله بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده لتلقي الوحي.

القسم الثالث الكونيات: كل ما عُلم بطريقة القطع واليقين من شأن الموجودات، مما أمر الله تعالى بمعرفته والاعتقاد بوجوده، وتشمل الموجودات: الإنسان والجان والملائكة.

القسم الرابع الغيبيات: كل ما لا سبيل إلى الإيمان به إلا عن طريق الخبر اليقيني، كالأخبار اليقينية عن أشراط الساعة وقيام الساعة والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار.

ومما تتميز به عقيدة التوحيد أنها ليست مجموعة تصورات ذات طبيعة نظرية منفكة عن الحياة العملية للفرد والمجتمع بل هي منظومة من التصورات الهادفة إلى التأثير في الفعل الإنساني من خلال القيم والمبادئ التي تنبثق منها.

والإيمان باليوم الآخر، وهو جزء من قسم الغيبيات، يحتل مكانة هامة بين المقومات الأخرى، فهو شطر الإيمان، وذو أثر حاسم في منهج الحياة شعورا وسلوكا، والميزان في يد المصدّق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب والمستريب الشاك فيه، فالمصدّق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض، لحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات ونتائجها هناك في الدار الآخرة[5].

إن الإيمان باليوم الآخر ليس معرفة نظرية بحتة كالتيقن بحركة المجرات ودوران الشمس، بل هي معرفة تتعلق مباشرة بمسؤولية الإنسان عن أفعاله المكتسبة في زمن وجوده الدنيوي، وتحمله لتبعاته يوم معاده، وهذا الارتباط لا يقتصر على

الإيمان باليوم الآخر بل هو ما يميز عقيدة التوحيد بكل مكوناتها، فهي ليست مجرد تصورات ذات طبيعة نظرية منفكة عن الحياة العملية للفرد والمجتمع، بل هي منظومة من التصورات الهادفة إلى التأثير على الفعل الإنساني[6].

2- أهمية الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر له دور كبير في استقامة العبد، فالذي يعلم أن هناك حسابا على ما يفعله من أخطاء، وأن هناك جحيما أبديا يودع فيه المجرمون المكذبون بيوم الدين، فإن ذلك من شأنه أن يدفعه لاجتناب الوقوع في المعاصي، فإن زلت قدمه يوما سارع بالاعتذار والندم وطلب العفو والصفح. فهو ركن ركين من أركان صرح الإيمان، لذلك كان ولا يزال الكفار والمشركون ومن سار على نهجهم يتشككون في قضية البعث والحساب[7].

ولأهمية الموضوع وضرورة الإيمان الراسخ به، فقد أفرد له القرآن مساحة كبيرة وتناوله من عدة جوانب، تناوله من جانب إثباته بالأدلة العقلية الدامغة على قدرة الواحد القهار على إحياء الموتى وإعادة خلقهم من جديد للحساب والجزاء، ومن جانب وصف أحداثه بشيء من التفصيل مع التركيز على مخاطبة المشاعر ترغيبا وترهيبا تشويقا وتحذيرا، بشتى الصور والمشاهد، لحمل النفس على الطاعة واجتناب المعاصي، ومن جانب آخر يمثل الإيمان باليوم الآخر تحقيق العدل الإلهي الذي لا يكون إلا في تلك الدار: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ [الأنبياء: 46] فالدنيا دار ابتلاء واختبار، فقد يظلم العباد بعضهم بعضا، ومنهم من يقترف الذنوب ويجترح السيئات ولا يقتص منه، وهذا يتنافى مع العدل الإلهي الذي قامت عليه السماوات والأرض، إلا أن هناك منزلة أخرى ومحطة نهائية حيث تلتقي الخلائق أمام محكمة الله العادلة في ذلك اليوم المشهود لينال كل فرد جزاء عمله وكسبه.

3- خاصية الوحدة الزمانية بين الدنيا والآخرة:

من خصائص الإيمان باليوم الآخر أنه يعطي للحياة الإنسانية بعدا زمنيا لا متناهيا ولا محدودا، لكونه يربط ربطا وثيقا بين الحياتين، الدنيا والآخرة، من حيث التصور والعمل، رغم انفصالهما بالفناء الأول والحياة البرزخية التي هي مرحلة انتقالية، فإذا سلّم الإنسان بهذه العلاقة واقتنع أن ما يضحي به في الدنيا يجده يوم القيامة موفيً موفورا، اجتهد في العمل لرفع رصيده من الأعمال الصالحة، فهو يقارن بين الحياتين ويقدم الباقية على الفانية، وتتولد لديه الرغبة والدافع للمزيد. بينما

الذي لا يوقن باليوم الآخر ولا يؤمن بالغيب يخلد إلى الحياة الدنيا لكونها الفرصة الوحيدة للتمتع بمباهجها، وهو لاهث وراء إشباع غرائزه لأنه موقن أن الدنيا لا توفر له كل احتياجاته، ويشعر بالغبن إذا هضمت حقوقه فيصاب بالإحباط لكونه لم يجد من ينصفه فيعيش عيشة ضنكا. فالحياة في رحاب هذا الدين ترفع العمر وتبارك فيه وتزكيه وتسمو به.

ثانيا: الإيمان باليوم الآخر والسلوك الاقتصادي:

1- عمارة الأرض وعلاقتها باليوم الآخر:

إن عمارة الأرض هو المفهوم القرآني لإصلاح الأرض وإحيائها واستخراج كنوزها ومعادنها وتسخيرها لخدمة الإنسان وتوفير أسباب الحياة والتشييد ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾[هود: 61]. وإن الطبيعة البشرية تقتضي من الإنسان أن يكدح ويسعى من أجل كسب قوته وتوفير احتياجاته الروحية والفكرية والمادية، فعمارة الأرض جزء هام من رسالته في الحياة والتي يترتب عليها مصيره في الحياة الآخرة، ولقد وضع الله تعالى في كتابه العزيز نموذجا حيا لدورة حياة الإنسان شاملة كاملة متمثلة في قصة أبينا آدم عليه السلام، لتبقى صورة منطبعة في قلب كل إنسان عن مسيرة حياته من بدايتها إلى مستقرها، مذكرا بالعقبات التي اعترضت حياة آدم عليه السلام وهي إتباع الهوى وغواية الشيطان، وقد وضع الله تعالى له الوسائل لاجتياز تلك العقبات، وزوده بالنصائح والتعليمات حتى يفوز في اختبار الدنيا بنجاح لينال السعادة الأخروية، ويذكر القرآن الكريم في كل محطة يورد القصة برسالة الإنسان في الدنيا فيحذره من غواية الشيطان ويذكره بالخطأ الذي وقع فيه أبوه آدم وكيف عفا الله تعالى عنه بتوبته واستغفاره، يقول تعالى: ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [البقرة:38]، ﴿**قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ [الأعراف:25] فالآيتان تؤكدان على حقائق هامة وتصورات شاملة لحياة الإنسانية:

- عداوة الشيطان للإنسان عداوة أبدية.
- الإيمان والعمل الصالح والتوبة أساس الفوز والنجاح.
- الحياة الدنيا دار مستقر ومتاع إلى حين.
- الدار الآخرة هي حياة الاستقرار والجزاء الحقيقي.

وعليه فالطابع الأساسي للتصور الإسلامي هو الرباط الوثيق بين حياة الدنيا وحياة الآخرة، فكل عمل فيه خير الدنيا وعمارتها فهو عمل صالح يستحق الجزاء الأوفى عند الله تعالى.

ومن الخطأ الشائع أن نميز بين أعمال الدنيا مثل تناول الطعام وأعمال الآخرة مثل الصلاة وتلاوة القرآن، فهو تقسيم صوري في إطار النظرة الشمولية، فمجرى الحياة واحد وزمانها واحد، والصلاح والطلاح يعودان إلى حركة القلب ووجهته، فمن طعم ليتقوّى على طاعة الله فهو صالح ومن صلى ليكسب بين الناس مكانة فهو طالح، ولا قيمة للظواهر والعناوين، وإنما القيمة لاتجاه الحياة والمحور الذي تدور عليه.

إن التفريق بين شؤون الدنيا والآخرة مع إطراح حركة القلب كان وراء التخلف الشائن الذي أزرى بأمتنا وأعجزها عن نشر رسالتها[8].

2- آثار الإيمان باليوم الآخر في عمارة الأرض:

إن المسلم وهو يسعى في عمارة الدنيا الفانية قد يشعر بالحرمان من الثمار الآنية التي يجنيها من وراء سعيه وكده، غير أن إيمانه الراسخ باليوم الآخر يجعله يطمئن إلى الجزاء الأبقى والأوفى الذي ينتظره، فينطلق في سعيه وعمله مشرئبا إلى يوم الفوز الأكبر والرضوان الأعظم مستصغرا كل العقبات، مستهدفا الحسنيين، فإن لم تكن الأولى فالأخرى ﴿**والآخرة خير وأبقى**﴾ [الأعلى:17]. وهذه نماذج لأثر الإيمان باليوم الآخر في السلوك الاقتصادي للمسلم:

أ- أثر الإيمان باليوم الآخر في العمل والإنتاج:

العمل والإنتاج يشكلان محورا أساسيا في الدورة الاقتصادية، فالعمل الإنساني شرط أساسي لتحويل الموارد المركوزة في الطبيعة إلى سلع وخدمات ينتفع بها الإنسان، والإنتاج هو إيجاد المنفعة وزيادتها، أوانه جهد يجعل المورد صالحا أو أكثر صلاحية للوفاء بحاجات الإنسان[9].

يرتبط مفهوم العمارة في الإسلام بكونها جزءا من رسالة الإنسان في الحياة، ولو أجرينا مقارنة بينها وبين الإنتاج في المفهوم الوضعي الذي يهتم بالجانب المادي من الحياة تمتعا وتفاخرا، وبرفع الطاقة الإنتاجية أو زيادة الدخل القومي، بينما العمارة في المفهوم الإسلامي تتميز بخصائص تعطيها معنى بالشمولية وتربطها بالعقيدة الإسلامية التي ترى الحياة الدنيا هي مطية الآخرة، وأنها دار عمل وكدح وإنتاج، ومن ثمّ فإن من خصائص العمارة أنها عبادة وفريضة في آن واحد.

انطلاقا من الأسلوب الإسلامي في الترغيب والترهيب والتشويق والتحذير، يستخدم القرآن نفس الطريقة في التحفيز على الإنتاج والعمارة، والتحذير من التكاسل والبطالة وسوء استخدام الموارد بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل.

أولا: التحفيز والتشويق على العمل والإنتاج:

يقول الرسول ﷺ: "من غرس غرسا فأكل منه طير أو بهيمة كان له فيه صدقة"[10]. فهذا الأثر النبوي يضفي وصف العبادة على الغراسة التي هي نوع من أنواع العمارة والإحياء. وهناك حديث آخر يحمل نفس الدلالة وهو قوله ﷺ: "سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من كرى نهرا – يعني أجرى نهرا- أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو علّم علما أو ورّث مصحفا أوترك ولدا صالحا بعد موته"[11].

فالعمارة المتمثلة في استصلاح الأراضي وإحيائها، إلى جانب أهميتها المادية في دفع عجلة التنمية وتوفير حاجات المجتمع، تمثل حافزا مهما لنيل ثواب الآخرة، فإذا اعتقد المسلم أن جهده لن يضيع حتى ولو لم ينل ثمرة جهده في الدنيا لسبب من الأسباب، فهو على يقين تام أن أجره الأخروي مدخر ولن يضيع.

هكذا تفعل عقيدة الإيمان بتحفيز العمارة ورفعها إلى مقام العبادة التي ينال بها حسنة الدنيا والآخرة، فإذا كانت ثمرة الدنيا احتمالية فإن ثمرة الآخرة مضمونة بلا ريب، فهذا يجعل المستثمر والزارع يقدم على العمارة ولو كان هامش الربح الدنيوي ضئيلا، فتتضاعف بذلك فرص التنمية والعمارة.

وإلى جانب كون الإنتاج والتنمية عبادة ينال بها المؤمن أجر الدنيا والآخرة، فهي واجب على كاهل الدولة والأفراد، يقول الإمام محمد بن الحسن الشيباني[12]: "إن الله فرض على العباد الاكتساب لطلب المعاش ليستعينوا به على طاعة الله، والله يقول: ﴿**وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**﴾[الجمعة:10]، فجعل الاكتساب سببا للعبادة. ويقول ﷺ: "طلب الحلال فريضة بعد الفريضة"، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم درجة الكسب على درجة الجهاد".

وهذه النصوص تدل على ارتفاع درجة الإنتاج إلى الفريضة التي يسأل الإنسان عنها كما يسأل عن الفرائض الدينية، فهو من الفرائض الكفائية التي يتعين وجودها على مستوى الجماعة دون تعيين فرد للقيام به، وقد عرّف الإمام ابن عابدين فروض الكفاية بأنها كل علم لا يستغنى عنه في قيام أمور الدنيا كالطب والحساب وأصول الصناعات كالفلاحة والحياكة والسياسة[13].

ثانيا: التحذير والترهيب من البطالة والظلم في المكاسب:

وفي مقابل هذا الأمر بالإنتاج هناك نهي عن البطالة وترك العمل مع القدرة عليه، واستمراء التسول وسؤال الناس، مما سيجعل من صاحبه يوم القيامة عبرة لغيره، فيعرف الناس ذنبه بمجرد النظر إليه، نكتة سوداء، وسمة عيب له بين الخلائق يوم القيامة، فقد جاء إلى النبي ﷺ رجل من الأنصار يسأله، فأرشده إلى العمل وتعلم حرفة خيرا له من السؤال، فالتزم الرجل بإرشاده ﷺ وعاد إليه بعد مدة وقد احترف حرفة وكسب مالا، فقال ﷺ: "هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: ذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع"[14].

أما الظلم في مجالات النشاط الاقتصادي وله أوجها كثيرة، بدءا من المحاباة في التعيينات والترقيات وعدم إعطاء العامل أجره المناسب لكفاءته، أو محاولة أكل أجره وعدم دفعه عند استحقاقه، أو استعمال الرشوة في حرمان حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل، وأية محاولة للاستيلاء على المال العام، أو أي تدليس أو غش أو غبن في المبادلات باستعمال الطرق الملتوية باستخدام الكذب وعدم الصدق والنصح بين المتعاملين، ويترتب على هذه المخالفات الشرعية عقوبات شديدة في الدنيا والآخرة، وتأتي أهميتها أن الظالم قد ينفلت من عقوبة الدنيا، لضعف المنظومة القانونية أو الرقابية، غير أنه لا يمكن له أن ينفلت من حساب يوم القيامة، حيث المحاسب هو العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ونكتفي في هذا الصدد بهذين النصين من الكتاب الكريم ومن السنة المطهرة، يقول تعالى في شأن الغلول (أخذ المال العام): ﴿**وما كان لنبيء أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ [آل عمران:161]. وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "قال الله ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثمّ غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره"[15]. فهذا الوعيد الشديد المتضمن في النصين يجعل المؤمن الموقن باليوم الآخر لا يفكر أصلا في الاقتراب من أموال الغير، فإن سولت له نفسه ذلك زجرها بهذا الوعيد الشديد.

ب - أثر الإيمان باليوم الآخر في الإنفاق:

إن الإنفاق بمختلف صوره وأنواعه، الاستهلاكي والاستثماري، العام والخاص، له دور فعال وبارز في الحياة الاقتصادية، حيث إن كثيرا من المتغيرات

الاقتصادية تعتمد في حساباتها وتحديدها على مدى فعالية الإنفاق[16]، وهو يمثل جانب الطلب في أبجديات الاقتصاد الوضعي إلى جانب العرض، فالطلب هو الموجه الرئيس لدفة الاقتصاد، حيث إن الإنتاج ونمطه يرجع أساسا إلى الطلب السوقي على السلع المنتجة وتحديد أسعارها، فالموارد تخصص وفقا لاتجاهات الطلب.

ونظرا لقيمة الطلب (الإنفاق) فقد اعتنى به القرآن الكريم وخص له آيات كثيرة في الحث عليه وبيان أنواعه وشروطه وجعل الإنفاق في سبيل الله صفة من صفات المتقين وبيّن الجزاء الذي أعده الله تعالى للمنفقين، وفي المقابل حذر من البخل والتقتير والاكتناز، وكلها صفات تتنافى مع الإنفاق. وللتحفيز على الإنفاق فقد ربطه ربطا وثيقا بالإيمان باليوم الآخر المتمثل في الثواب الأخروي الذي أعده الله للمنفقين، بالإضافة إلى الخير العاجل في الدنيا.

ولما كانت حقيقة الإنفاق هو تخلي الإنسان عن جزء من ماله إلى جهة ما، فهذا الأمر يحتاج إلى باعث ودافع قوي لكي يسهل عليه إخراج المال، خاصة إذا علمنا أن الإنسان بفطرته يضن بالمال ويستأثر به ويصعب عليه التضحية به، وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة الإنسانية ﴿**وإنه لحب الخير لشديد**﴾ [العديات:8]. كما أن الطبيعة البشرية تنتظر المقابل وتود المكافأة حين تقدم على الإنفاق على الغير للتغلب على الإمساك المركوزة في نفسه. لكن الشرع الحنيف عالج هذا الجانب النفسي من غريزة حب التملك بمشروعية الإنفاق، فجعل هذا التشريع مقرونا بالجزاء المترتب بالخلف والمضاعفة والوفاء، وتؤكد على حصول المقابل في الآخرة ما هو أعظم من هذه الأموال في الحياة الدنيا[17].

انطلاقا من نظرة التوازن في الجزاء الأخروي في القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، فقد ذكّر بالوعيد الشديد للممتنعين عن الإنفاق ومكتنزي الأموال والممسكين عن أداء حقوق المال ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾ [التوبة:34].

وهذه النظرة القرآنية تجعل المؤمن باليوم الآخر حذرا يقظا ومدركا للمسؤولية الكاملة على تصرفاته وهو موقن أنه سيقف يوما ما بين يدي الله للحساب والجزاء.

فذكر الجزاء الأخروي يغرس في قلب المسلم باعثا روحيا وأخرويا على الإنفاق غير الباعث المادي الدنيوي، مما يسهل على النفس عملية الإنفاق، بل تصل إلى قمة السعادة الروحية حين يتمكن هذا الشعور في القلب ويصل إلى درجة اليقين بالله وبصدق وعده وبجزيل ثوابه.

وهذه الميزة ينفرد بها الاقتصاد الإسلامي حين مزج بين الجانب المادي والروحي وربط بين الحياتين، في توافق وتوازن بينهما، ولا نجد لها نظيرا في الاقتصاديات الوضعية، حيث الانغماس في الجانب المادي الصرف، أو الاقتصار على الجانب الروحي فحسب، فالمسلم عندما ينفق أمواله لعمارة الأرض واستثمارها والانتفاع من خيراتها، فإنه في الوقت نفسه يجعل نصب عينه ميزان الحسنات والسيئات ومسألة الجزاء الأخروي، أما غير المسلم ومن لا يعتقد باليوم الآخر وفق التصور الإسلامي فإنه بلا شك سينعكس ذلك الاعتقاد على سلوكه الاقتصادي في الإنفاق، فلا يبتغي من وراء ذلك سوى إشباع غرائزه وحصوله على أقصى منفعة ذاتية دنيوية.

ج- أثر الإيمان باليوم الآخر في الاستهلاك:

يعدُ سلوك المستهلك من المحاور الرئيسة في التحليل الاقتصادي لكونه المحطة الأخيرة والهدف النهائي للنشاط الاقتصادي، أما الاقتصاد الإسلامي فهو يتجاوز التحليل السلبي المجرد للظاهرة والوقوف عند حدود رصدها ومحاولة اكتشاف مؤثراتها إلى البحث في مؤثراتها السلوكية سواء بالسلب أو الإيجاب، وإحداث التأثير النفسي والروحي بما يحقق أهداف الاستهلاك كوسيلة لأداء رسالة الإنسان[18].

ينطلق الاقتصاد الإسلامي في دراسة الاستهلاك من تحديد مفهوم الحاجة الذي لا يقتصر على إشباع الجانب المادي كما يرى الاقتصاد الوضعي، فالإنسان مركب من مجموعة عناصر روحية فكرية وجسمية ممزوجة ومتداخلة، لا يوجد عنصر مستقل عن الآخر، لو فقد منها عنصر لما بقي إنسانا، وطالما أن فطرة الإنسان هي هكذا، فإن حاجة الإنسان هي أيضا ذات طبيعة مركبة حتى ولو اتخذت مظهرا معينا، فحاجة الإنسان للطعام مثلا ليست لعنصر معين من عناصر الإنسان، وإنما هي حاجة كل الإنسان، لأن الجسم لا يشبع وحده بمعزل عن بقية العناصر، كما أن الطعام يؤثر في الروح والفكر كما يؤثر في الجسم، ومن ثمّ اشترط الإسلام في الطعام أن يكون طيبا ذاتا ومعنى وأن يحقق التوازن بين عناصر الإنتاج ما أمكن. ومن جهة أخرى فالحاجة ليست مجرد تحقيق لذة أو دفع ألم، كما يذهب الفكر الوضعي، وإنما هي وظيفة موضوعية تتمثل في المحافظة على القوى والعناصر الإنسانية المختلفة والعمل على تنميتها وترقيتها، فحاجة الإنسان للأكل ليست لدفع ألم الجوع أو تحقيق لذة الشبع فحسب وإنما للمحافظة على الجسم وبناء خلاياه[19].

والإسلام حين ينظر إلى الاستهلاك بهذا المفهوم الواسع ويضعه في إطار رسالة الإنسان، وأنه فطري ومن ثمة فهو ضروري، وكل ما كان كذلك فلا يمنع الإسلام منه بل يقف منه موقف الحث والترغيب غير مكتف بدافع الفطرة والغريزة، فبقاء الإنسان واستمرارية نوعه ليعمر الأرض ويكون خليفة فيها بحق ويعبد الله لا يتأتى إلا بالاستهلاك.

وإذا استعرضنا الآيات البيّنات في موضوع الاستهلاك نجدها تحث على الاستمتاع بالطيبات ضمن ضوابط محددة وغاية سامية مع شكر المنعم وحسن عبادته، والتذكير بالمصير الذي هو نهاية كل مخلوق، إذ يقول تعالى في هذا الصدد: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾ [الملك:15] وفي صيغة الإنكار على من يحرم على نفسه التمتع بالطيبات يقول تعالى: ﴿**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾ [الأعراف:31]، وعلى سبيل الحث والأخذ بمظاهر الحياة والشعور بنعمة الله في حدود الاعتدال يقول تعالى: ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ [الأعراف:31].

فالقرآن الكريم يحدد ثلاث مناطق ومراتب للاستهلاك والإنفاق وهي: الإسراف والقوامة والتقتير وينهى المسلم عن دخول منطقتين وهما الإسراف والتقتير، ويبيح له البقاء في المنطقة الوسطى وهي القوامة، فيقول تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾ [الفرقان:67].

وعلى النقيض من ذلك جاء التحذير من الإسراف والتبذير الذي يُعدّ تبديدا للموارد الاقتصادية في غير موضعها وحرمان المستحقين لنصيبهم العادل منها، وربط النص القرآني مصير المبذرين بمصير الشيطان[20]، وهذا نذير عقاب وعذاب واقع لا محالة، إذ يقول تعالى: ﴿**وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا**﴾ [الإسراء:27]

وقد عدّد الرسول ﷺ مظاهر الإسراف محذرا منها ومتوعدا المسرف بأشد العذاب يوم القيامة، منها استعمال آنية الذهب والفضة التي توحي بالخروج من منطقة القوامة والاعتدال إلى الإسراف والتبذير والبطر والكبر وينمّ عن التعالي على الناس وعن الأعراف المعهودة في أدوات الأكل والشراب ووضع الأشياء في غير

محلها، ويقول عليه السلام: "إن الذي يشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم"[21].

نتأمل هذا الحديث الذي ربط بين الإسراف في استخدام النعم في غير محلها في الدنيا والعذاب الأليم الذي أعده الله للمسرفين المبذرين يوم القيامة، فالمؤمن الحق لا يفكر أصلا في هذا السلوك الخلقي الشائن لكونه يعيش في منطقة القوامة مهما كان كسبه وماله، إلا أن هذا الوعيد يعصم من النفس الأمارة بالسوء، ويجعل حرمانها من الشرب في آنية الفضة في الدنيا سببا للفوز بالجنة والتمتع بنعيمها الذي يتضمن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة، فيقول تعالى: ﴿**وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قواريرا من فضة قدروها تقديرا**﴾ [الإنسان:16].

إنه تقابل عجيب بين المعتدلين والمسرفين في الاستهلاك في الدنيا، كيف ينقلب الوضع تماما في الدار الآخرة حيث يجرجر المسرفون على بطونهم في نار جهنم، بينما يتنعم المعتدلون الصابرون بما حرموا به أنفسهم في الدين بالتمتع بلباس الحرير والشرب والأكل في آنية الذهب والفضة.

فإذا اعتقد المؤمن وتيقن أنه ما من نعمة حرم منها نفسه من متع الحياة الدنيا سيمتعه الله تعالى يوم القيامة بمثلها وبخير منها طهارة وحلاوة، إلا كان له حافزا على الصبر وابتغاء ما عند الله الذي هو خير وأبقى.

2- الأثر الإيجابي للإيمان باليوم الآخر في السلوك الاقتصادي للصحابة (رضوان الله عليهم):

من أجل رصد أثر الإيمان باليوم الآخر في السلوك الإنساني، نعرض نماذج حية وقعت في التاريخ الإسلامي، حينما أدرك الناس حقيقة الإيمان باليوم الآخر.

لقد أدرك الصحابة الكرام الذين تربوا في مدرسة النبوة وعاشوا وتفاعلوا مع نزول القرآن الكريم على قلب الرسول المربي محمد ﷺ، وتشربوا عقيدة الإيمان باليوم الآخر إلى حد اليقين المطلق، فانعكس على سلوكهم وهم يتعاملون بمال الدنيا وهم على إيمان راسخ أن ما أنفقوه سيخلفه الله لهم بأضعاف مضاعفة في تلك الدار الأبدية الدائمة، وهذا السلوك لا نجد له تفسيرا منطقيا إلا في ظل عقيدة الإيمان بالله وباليوم الآخر، وإلا فهو تصرف غير رشيد بموازين الحياة المادية، إذ كيف يعقل أن

ينسلخ الإنسان عن ماله وعن أعز ما يملك إيثارا لغيره بدون مقابل مادي، سوى ابتغاء رضوان الله والرجاء بالمضاعفة والخلف في اليوم الآخر.

وقد اتخذ الصحابة الكرام أسلوبين من أساليب الصدقة التي أرشدهم إليها النبي ﷺ وهما: أ/ أسلوب الصدقة المباشرة. ب/ أسلوب الوقف.

الأسلوب الأول: ويتمثل في الصدقة المباشرة وعادة ما تكون عينية ويحول ملكيتها إلى المصدق عليه، وهذه نماذج سريعة منها:

أ- لما نزل قوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون**﴾ [البقرة:245]، قال أبو الدحداح يا رسول الله، إن الله يريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح. قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده فقال: قد أقرضت ربي حائطي (بستان) به ستمائة نخلة. وأم الدحداح وأبناؤها فيه، فناداها: أخرجي فقد أقرضته ربي- عز وجل- قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح[22].

ب- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قحط الناس في زمان أبي بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تمسون غدا حتى يأتيكم فرج الله، فلما كان صباح الغد قدمت قافلة لعثمان، فغدا عليه التجار فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه فسألوه أن يبيعهم قافلته، فسألهم: كيف تربحونني؟ قالوا العشرة اثني عشر، قال: قد زادني، قالوا: فالعشرة خمسة عشر، قال قد زادني، قالوا: ومن زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: إنه الله، زادني بكل درهم عشرا، فهل لديكم أنتم مزيد؟ فانصرف التجار عنه، وهو ينادي: اللهم إني وهبتها لفقراء المدينة بلا ثمن، وبلا حساب[23].

ج- استمع الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف لقوله تعالى: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**﴾ [آل عمران:92] فسارع إلى الإنفاق بمختلف أنواع الإنفاق رغبة فيما عند الله وزهدا في تلك الدنيا، فقد ذكر طلحة بن عبد الله بن عوف أن أهل المدينة كانوا عيالا لعبد الرحمن بن عوف: ثلث يقرضهم، وثلث يقضي دينهم ويصل ثلثا[24].

الأسلوب الثاني: الوقف الذي يعني تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة، وقد أرشد الرسول الكريم محمد ﷺ وهو القدوة الحسنة أصحابه إلى أسلوب ناجح في ربط العمل الدنيوي بالأجر في الآخرة لما علموا أن الإنسان إذا مات انقطع عمله وتوقف تدفق الحسنات عليه، فدلهم إلى تحبيس الأموال لتبقى صدقة جارية إلى يوم

الدين، فيقول الرسول ﷺ: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"[25]. والصدقة محمولة عند العلماء على الوقف، فقد اشترى الرسول أرضا بِحُر ماله وبنى فيها مسجده بالمدينة[26]، فتسارع الصحابة رضوان الله عليهم وتسابقوا على وقف أموالهم على جهات البر المختلفة.

ومن أشهر من أوقف من الصحابة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيما يرويه الشيخان: أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخيبر، لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ فقال: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، قال: فتصدق بها عمر، فقال: أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث"[27].

فلولا هذا اليقين الصادق باليوم الآخر لما أقدم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأبو الدحداح وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم، على هذا الإنفاق السخي وإيثار أجر الآخرة على متاع الحياة الدنيا.

خاتمة:

بعد استعراض مكانة وأثر الإيمان باليوم الآخر في السلوك الاقتصاد المسلم، فالسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح ويبحث عن إجابة شافية هو: لماذا لم يظهر هذا الأثر الذي رصدناه في واقع المسلمين الأوائل في حياة المسلمين اليوم، على الرغم من أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر؟

إن الإجابة عن ذلك، بكل بساطة، أن إيمانهم سطحي مظهري لم ينفذ إلى العمق وإلى اليقين بأن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء وأداء رسالة الإنسان وأن الآخرة هي الحيوان، فماداموا لم يدركوا دورهم في الحياة وعلاقتهم بالخالق وبالكون الذي يحيط بهم، فلن تظهر آثار هذا الإيمان في السلوك. أما المسلمون الأوائل فقد أدركوا هذه الحقائق من خلال تبصرة القرآن الكريم لهم فوعتها قلوبهم، وترجمتها جوارحهم في أرض الميدان. فعلى المسلمين اليوم أن يتدبروا القرآن الكريم، وأن يتخذوا من حياة الصحابة الكرام ومن اهتدى هديهم أسوة حسنة في نظرتهم للحياة الدنيا والآخرة.

والحمد لله أولا وأخيرا، وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد في الأولين والآخرين.

مراجع البحث:

- أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط:1، س: 1420/ 1999.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، تهذيب لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، س: 1993/1413.
- أحمد يوسف، القيم الإسلامية في السلوك الاقتصادي، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط:1، سنة: 1410- 1990.
- باسم أحمد عامر، نظرية الإنفاق في ضوء القرآن الكريم، عمان دار النفائس، ط:1، سنة: 2010/1430.
- رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط:1، س: 2002/1423.
- سعد المرصفي، أحاديث الوقف الإسلامي ودوره في بناء المجتمع الإسلامي، الرياض: دار القبلتين للنشر والتوزيع، ط:1، سنة: 2005/1426.
- سمير نوفل محمد، دور العقيدة في الاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، ط:1، سنة:1425/ 2005.
- لؤي صافي، العقيدة والسياسة، معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية، دمشق: دار الفكر، ط:1، سنة 1422-2001.
- مجدي الهلالي، بناء الإيمان من خلال القرآن، القاهرة: مؤسسة إقرأ، ط:1، سنة: 1426-2005.
- محمود المصري، أصحاب الرسول ﷺ، القاهرة، مكتبة أبي بكر الصديق، ط:2، سنة: 1423/ 2002.
- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ط:14، سنة: 1981/1401.
- فتح الله كولن، ونحن نبني حضارتنا، إستنبول، دار النيل للطباعة والنشر، ط:1، سنة: 2012.
- محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الجزائر، دار إسلام للنشر والتوزيع، د،ط: د،ت.
- محمد باقر الصدر: فلسفتنا، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط:13، سنة: 1982/1402.
- محمد حمدي، نظرية الاستخلاف في الأموال في الاقتصاد الإسلامي، القرارة، جمعية التراث، ط:1، سنة: 1425/ 2004.
- محمد حمدي، مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي، الجزائر، فيزيوكوم، ط:1، سنة: 2012.
- محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دمشق: دار الفكر، ط:1، سنة: 1998.
- محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط:8، س: 1422/ 2001.

- محمد عبده، رسالة التوحيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ط، س: 1988.

الهوامش:

[1]- ﴿**أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ورسله**﴾ سورة البقرة، الآية 285.
[2]- رواه مسلم.
[3]- محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر،دمشق، بيروت، ط:8، س: 2001/1422، ص:77.
[4]- محمد عبدة، رسالة التوحيد، مرجع سابق، ص: 7.
[5]- سيد قطب، في ظلال القرآن، مج: 6، ص: 3700.
[6]- لؤي صافي، العقيدة والسياسة، معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية، ص:55
[7]- بناء الإيمان من خلال القرآن، مجدي الهلالي، ص:66
[8]- محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص: 149.
[9]- محمد حمدي، مدخل على الاقتصاد الإسلامي، ص: 45.
[10]- أخرجه البخاري، كتاب الحرث، ج: 5، ص: 3، رقم: 2320.
[11]- أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، أنظر : مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي، ط:1، دار إحياء الكتب العربية، ج: 2، ص: 50.
[12]- الشيباني محمد بن الحسن، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص:15.
[13]- ابن عابدين الحاشية، ج: 2، ص: 42.
[14]- أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، ما تجوز المسالة.
[15]- رواه البخاري كتاب البيوع، إثم من باع حرا
[16]- باسم أحمد عامر، نظرية الإنفاق في ضوء القرآن الكريم.
[17]- باسم أحمد عامر، نظرية الإنفاق في ضوء القرآن الكريم، ص: 194.
[18]- سمير محمد نوفل، دور العقيدة في الاقتصاد الإسلامي، ص: 323.
[19]- محمد حمدي، مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص:65.
[20]- محمد سمير نوفل، دور العقيدة في الاقتصاد الإسلامي، ص: 326.
[21]- رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الأشربة، باب الشرب في آنية الفضة.
[22]- رواه الإمام أحمد في المسند (3:346).
[23]- أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، ص: 170.
[24]- المرجع نفسه نقلا عن السير للإمام النهب ي(88/1)، ص: 242.
[25]- أخرجه مسلم 25، الوصية (1631) والبخاري: الأدب المفرد (38).
[26]- ذكر ذلك البخاري في باب : وقف الأرض للمسجد (2774).
[27]- المرجع نفسه (الشروط:2737).